محمد المبارك
(الشخصية المتفانية لإثراء الحقل الثقافي أدبيا ولغويا وعقيديا)

الأستاذ/ محمد الصالح الصديق
باحث وكاتب.

عندما منيت الجزائر باحتلال الاستعمار الفرنسي المشؤوم سنة 1830م وأخذ "رسل التمدين والتحضير" يسلطون ألوانا من التعذيب والتنكيل على الشعب الجزائري هاجرت عائلات جزائرية إلى المشرق العربي فرارا بدينها وكرامتها، ونزلت عائلات منها بالشام، فطاب لها فيه المقام، ووجدت أهله كأهلها، فأنجبت أبناء وأحفادا، برز فيهم علماء وأدباء ومفكرون ورجال حرب كان لهم الدور الفعال في بناء الحياة الفكرية والثقافية والأدبية، وفي حماية الذمار والوطن وثوابت الأمة...

محمد المبارك

ومن إحدى هذه العائلات انحدر مترجمنا العالم المفكر الأستاذ محمد المبارك.

أصله:

أصله من دائرة "دلس" ولاية "تيزي وزو" هاجر جده الشيخ المبارك إلى الشام حوالي 1262هـ (1846م) وكانت هجرته صحبة جده لأمه الشيخ المهدي السّكلاوي اليارثني شيخ الطريقة الرحمانية وتلميذ الشيخ محمد بن عبد الرحمن الأزهري، ولما هاجر الشيخ السكلاوي استخلف على الطريقة ابن الحداد شيخ المجاهدين.

ومن الذين هاجروا مع الشيخ السكلاوي إلى الشام، تلميذه الشيخ صالح السمعوني – من بني وغليس بوادي الساحل – وهو والد المفكر الكبير صاحب المؤلفات والتصانيف الشهيرة الشيخ طاهر الجزائري، الذي تحدثنا عنه في هذا الكتاب بتفصيل واطناب(1).

والتحق بهذا الركب من المهاجرين الأمير عبد القادر بعد اطلاق سراحه وبعد اقامته بتركيا مدة من الزمن، وكان الشيخ المبارك يلازمه كثيرا.

ويذكر العلامة المحقق الأستاذ أحمد تيمور في كتابه "أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث" أن الأمير عبد القادر كتب إلى الشيخ المبارك ملغزا في الهرم: (أي الشيخوخة):

أقول على صدق أهل النهى طرا ... ولست بمستثن لئيما ولا حرا
ألا خبروني أين ضلت عقولكم ... وكلكم يستهجن الشر والضرا
ويغفل عنه وهو منتبه له ... ويطلب هذا الشر، أعظم به شرا

فأجابه الشيخ محمد المبارك الجزائري بإشارة منه:

أيـــا جهبذا رقـــت معافـــى رموزه ودقت فلم يدرك لها ذو الحجا ســـرا
لقـــد ضل فكري فـــي مهامه لغزكم ولـــم يُلف من يوليه من طيه نشـــرا
ومـــا هـــو إلا كنـــز درّ معـــارف لـــه رصـــد يحـــي جواهره قســـرا
فحاولـــت أن اجلـــو براقـــع وجهه واكشـــف عن معنى بلاغته الســـرا
فخيـــل لـــي أن الرياســـة ســـدة وخلـــت – إذن – أني أحطت خبرا
ولا ريب إن الجاه أعظـــم مشـــتهى على أنه شـــر، وأعظـــم به شـــرا
ومن بعد هذا أمعنت فكري فلاح لي هو الكبر المســـتلزم البأس والضرا
وهذا لعمـــري ليس يرقى ســـليمُه ولكـــن ينال الأجر إن أحرز الصبرا
فأســـأل ربّ العرش يحفـــظ ذاتكم بجاه ختام الرســـل خير الورى طرا

ولادته ودراسته:

ولد الدكتور محمد المبارك بمدينة دمشق عاصمة الشام عام 1330هـ الموافق لـ 1912م في أسرة علمية دينية فكان من غرة طفولته مثالا للطفل المهذب والابن المطيع، وما أن تهيأ لطلب العلم ودراسته حتى دخل مدارس الشام، وانكب فيها على الدرس والتحصيل تحت رعاية أسرته، وظـــهر نبوغه مبكرا مما كان يستلفت أنظـــار معلميه.

وأحرز على شهادة العالمية "الليسانس" في الآداب والحقوق وهو صغير لا يتجاوز عمره الواحدة والعشرين، وتفتح قلبه للعلم أكثر بعد هذا النجاح فذهب إلى باريس سنة 1933م وانتظـــم في سلك الطلبة لجامعة السوربون حيث أتم دراسته العالية وتخرج منها سنة 1938م واثر عودته إلى الشام عهد إليه بتدريس اللغة العربية وآدابها، ثم عين أستاذا في الكلية فدرس الحقوق والآداب والشريعة ثم انتخب عميدا لكلية الشريعة.

وفي بطاقة شخصية له في كتابه "نظـــام الإسلام" أنه عمل مدرسا للأدب العربي في المدارس الثانوية ثم مفتشا عاما للغة والدين ثم محاضرا في كلية الآداب في جامعة دمشق سنة 1947.

في ميدان السياسة:

أبرز مجال لنشاطه، مجال التعليم ونشر الثقافة وصنع الرجال، فكان يربي، ويعلم، ويحاضر، ويوجه ويرشد، ويؤلف الكتب، ويحرز الأبحاث والمقالات للصحف والمجالات، ولكن ذلك لم يمنعه ولم يحل بينه وبين السياسة فقد خاض غمارها وتقلد أعلى مناصبها وصال في أوسع ميادينها فتولى وزارات الزراعة، والأشغال العامة. والمواصلات، والمعارف وما كان ليتبوأ كل هذه الوزارات لولا مؤهلاته العلمية، وخدماته الوطنية الإسلامية، ومقدرته على الإدارة والتسيير.

في ميدان التأليف:

اشتهر الدكتور بعمق التفكير، وجزلة الأسلوب، وكان لا يكتب إلا بعد أن يتبين طريقه، فيعرض أفكاره في صورة يتخير لفظـــها ومعناها، وحينما تقرأ له يستحوذ على مشاعرك وأحاسيسك بالصورة والروح، والعرض والجوهر.

وقد أصدر عدة كتب قيمة في مجالين اثنين هما: مجال الإسلام والعقيدة، ومجال اللغة وأدابها، ومن هذه الكتب:

سلسلة نظـــام الإسلام، ونحو إنسانية سعيدة، والحسبة في الإسلام وعدة مؤلفات عن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وفقه اللغة وخصائص العربية، ومن منهل الأدب الخالد والأمة العربية في ميدان تحقيق الذات، والقصة في كتاب البخلاء، ونصوص لغوية من القرآن الكريم.

ولولا أن معظم وقته كان ينفقه في التدريس وإلقاء المحاضرات والاتصالات العلمية المفيدة لكانت كتبه أكثر، فقد تولى التدريس في أربع جامعات، وهي جامعة دمشق، والجامعة الأردنية، وجامعة الملك عبد العزيز بجدة، وجامعة أم درمان بالسودان، كما عرفته عدة جامعات أخرى في العالم العربي والإسلامي أستاذا زائرا.

ومن هنا قلت كتبه نسبيا أما الرجال الذين ألفهم في مختلف البلدان العربية والإسلامية فأكثر من أن يحصرهم العد، وكلهم يذكرونه بالتقدير والإكبار.

نشاطه وآثاره في المؤتمرات:

ولمكانة الدكتور العلمية، وشهرته الذائعة الواسعة، كان يدعى لمختلف المؤتمرات الدولية، والإسلامية، والعربية، والملتقيات الفكرية، وكان يحضرها في أعمالها بنشاط مكثف، وإثراء واسع، مما جعله دائما مرموقا بين أرباب الصدارة من أهل الفكر والعلم والأدب، يقول عنه الشيخ أحمد حماني الذي كان يلازم ملتقيات الفكر الإسلامي بالجزائر.

"كان – حيث ما كان – من النجوم اللوامع، والشهب السواطع، يحاضر فيبهر ويجيد، ويحاور فيفحم، أو يقنع ويفيد، تشهد له بذلك محاضراته وتدخلاته في ملتقيات الفكر الإسلامي بالجزائر. وقد استمع إليه فيها عشرات الألوف الحاضرين في قاعات الملتقى أو من المستمعين في الإذاعة المسموعة، أو الإذاعة المرئية، وكل من استمع إليه يتكلم بالعربية أو الفرنسية شهد له بالمقدرة الفائقة في التعبير والإلقاء والحوار والمناقشة، لأنه يتكلم عن علم غزير، وفكر عميق، وخبرة تامة، وإيمان صادق"(2).

ويذكر الشيخ أحمد حماني أن من أهم مواقف الدكتور محمد المبارك موقفه في أول لقاء إسلامي مسيحي بقرطبة سنة 1975م حيث أثبت فيه قيمة العقيدة الإسلامية وصحتها ومتانتها واعترافها بجميع الأنبياء والمرسلين وإيمان

المسلمين بهم جميعا لا يفرقون بين أحد منهم، ثم قيمة الحضارة الإنسانية العظـمى التي حققها المسلمون، وانتقل من قرطبة إلى باريس فدعي أمام التلفزة الفرنسية لإلقاء المحاضرات أو الاشتراك في محاورات لاح منها ضوء ساطـع أوضح دور الإسلام الحضاري وأهميته فيما مضى، وفيما يستقبل من الزمن(3).

حبه للجزائر وأثره فيها:

كان يحمل للجزائر – موطن أجداده – حبا عميقا، ويحن إليه حنين الألف فارقه القرين، فعندما كان في باريس يدرس بالسوربون كان يزور الأماكن التي يكثر فيها الجزائريون فيلقى فيهم دروسا ومحاضرات ويوجههم ويذكرهم بوطنهم وأمجاده وتاريخه، ويحذرهم من الانخداع ببريق المدنية الغربية والانجذاب نحوها، وكثيرا ما أبكى العيون، وأدمى الأفئدة.

وكان إذا افتخر افتخر بأبوة الإسلام، وإذا دعا دعا به، وإليه، ومن أجله. وإذا ذكر الجزائر والشام تفتحت في قلبه عواطف الوطنية الصادقة وتهللت على وجهه إشراقة وضيئة، وحركه الحنين من الشام إلى الجزائر ومن الجزائر إلى الشام، وليس هذا ضيقا في الوطنية، فإنه كان يؤمن بالوطنية الإسلامية الواسعة ويمجدها ويعمل لصالحها، وإنما كان يحب الجزائر والشام حبا خالصا لأن الأول موطن أجداده، والثاني فيه ولد ونشأ وترعرع .. وفيه تفرعت من دوحته فروع وامتدت أغصان.. وتفيأت ظـلال.

وتعرّف الدكتور محمد المبارك على الأستاذ مولود قاسم في باريس وتحابا وتصادقا، وعندما تولى مولود وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية استدعاه لإلقاء المحاضرة بالمركز الثقافي الإسلامي بالعاصمة، ثم لم يفتأ بعد ذلك يحضر إلى الجزائر للمشاركة في ملتقياتها الفكرية الإسلامية، وكان يغتنم فرصة وجوده في الجزائر فيزور "دلس" موطن أجداده فيلقى في مسجدها العتيق بين أبناء

عمومته وذويه أثمن الدروس وأنفسها، ويقدم لهم بلغة الإسلام والقرآن أغلى النصائح وأفيدها، فيعود إلى الشام حاملا ذكريات عن الجزائر جميلة عطرة يظـــل على نفحاتها الذكية الحالة حتى يعود إلى الجزائر في زيارة أخرى...

من أقواله وآرائه:

سئل عن دور الإسلام في التربية فأجاب بقوله:

"يجب أن يكون الإسلام أساس النظـــام التربوي، وله جوانب متعددة منها دراسة الإسلام والدراسات الربانية في التربية، فدور الدين يتمثل في التعليم: تعليم مادة التربية الإسلامية التي لا تشمل فقط التهذيب الأخلاقي وتعلم العبادات، إنما تشمل جميع جوانب الإسلام، كما ينبغي أن يكون الإسلام أساسا لجميع مواد التعليم، إما عن طريق التوجيه او الانطـــلاق أو عدم التعارض مع ما لم ينص عليه الإسلام"(4).

وتحدث عن قلق الإنسان في العصر الحديث وقال:

"إن حضارة العصر الحديث أدت للإنسان خدمات عظـــيمة، وأسدت إليه أيادي جليلة فاكتشف الإنسان الكثير من سنن الكون وأسراره ولا يزال يسير، واتخذ من اكتشافه هذا وسيلة لترفيه صناعته واستثمر عمله وصناعته، للترفيه عن نفسه وتخفيف مشاق الحياة وسرعة السير فيها حتى بلغ في ذلك مبلغا كبيرا، ولا يزال البشر يتنافسون في كسب الجديد من هذه الوسائل التي تزيد في الملذات، وتخفف العناء والمشقات، ولكن ذلك كله لم يكسب الإنسان أمنا وطمأنينة بل زاده قلقا، فلا يزال الصراع بكل ما فيه من غرائز القتال والتغلب في السلب على أشده بين بني الإنسان(5).

وبعد أن يذكر عجز جميع المذاهب والنظـــم الأرضية عن توفير الأمن والطمأنينة للبشر، يذكرأن الإسلام هو العلاج الوحيد لأمراض البشرية وأنه الطريق الوحيد إلى سعادة الإنسان.

وكتب بحثا قيما جديدا في بابه عن "عبقرية اللغة العربية" تحدث فيه عن مادة الكلمة وتركيبها، ومعاني الألفاظ، وصيغ الألفاظ وأوزانها وموسيقاها، وتشابه الطبيعة في خصائص اللغة العربية، ثم ختم البحث بهذه الخلاصة الهامة:

"وخلاصة القول أن الألفاظ العربية ترجع إلى أصول وأنساب محفوظة وفيها العنصر الثالث الخالد الذي لا تتطلب الحياة تبديله، ويتجلى في أصوات ثلاثة تتركب منها الكلمات العربية ومنها القوالب الفكرية أو الصيغ والأوزان الموسيقية، ومنها العنصر المتحول المتطور بتحول الحياة وتطورها وهو الاشتقاق الذي يؤدي وظيفة التجديد والتوليد ليؤدي بذلك وظيفة فكرية تعبيرية أو فنية ذوقية.

وقد استطاعت العربية بأصولها القديمة الموجودة أن تعبر عما في العقل والقلب والطبيعة من أفكار وعواطف وصور خلال عصور طويلة دون أن تستنفد قوتها أو تضعف أو تحجم فجمعت بعناصرها الخالدة والمتحولة بين مزيتين قلما أن تجتمعا في أمة وفي لغة وهما الثبات أو الخلود والتطور والتقدم، فكان شأنها في ذلك شأن الرسالة التي حملها العرب في خلودها وتطورها وفي اشتمالها على عناصر ثابتة ما كانت الحياة، وعناصر متحولة متطورة.

وشابهت اللغة العربية الطبيعة في منطقيتها وتصنيفها للموجودات وفيما فيها من وحدة وتشابه وتعدد وذاتية وشابهتها في فنها، فزخرف العربية الظاهر في صيغها كزخرف الطبيعة في أشكالها وموسيقى الألفاظ ذات الأوزان المعدودة التي تتألف منها قطع موسيقية لا حصر لها بحسب قانون الاحتمالات الرياضي كموسيقى الطبيعة نفسها.

ولهذا استطـــاعت اللغة العربية أن تكون لغة الإنسانية جميعا تعبر بأصوات العرب وألفاظـــهم عن أفكار الإنسانية والعواطف الإنسانية فبكتابها العربي المبين خاطب الله البشر جميعا فكان خير أداة لنقل الرسالة التي انتشرت في العالم فكانت بإنسانيتها العامة مفخرة للعرب وشرفا.

وأن دراستها وتفهمها تفهما عميقا كشفا عن شخصيتنا وترسيخا لعروبتنا بل إنسانيتنا لأننا من خلال ألفاظـــها وقوالبها عرفنا أنفسنا وعرفنا الإنسانية بل عرفنا الكون والله"(6).

وللدكتور محمد المبارك جولات في القرآن الكريم موفقة صائبة، تنم عن إحساس خاص بأسرار القرآن الكريم، وفهم عميق لإشاراته وإيحاءاته وملكة قوية ومران على البحث والاستدلال والاستنباط.

فلنستمع إليه وهو يحدثنا في ظـــلال سورة يوسف عليه السلام عن بعض أسرارها ودقائقها ويقول عن مفتتحها (الر):

"افتتحت السورة بهذه الحروف المتقطـــعة الثلاثة (الر) التي تريك من الكلمات موادها الظـــاهرة، وتخفي عنك سرّ ظـــهورها قرآنا بألفاظ عربية تفهم وتعقل كما تخفى الحوادث الظـــاهرة في القصة، من ورائها سر القدر الإلهي فهنا أسرار الحياة التي استأثر الله بها وكشف عن بعض مظـــاهرها وآثارها وتلك آيات الكتاب المبين مفصحة عن قدرة الله تعالى ودالة على وجوده وعلى لطفه ورحمته وعنايته.

ثم يقول عن قصة يوسف التي هي موضوع السورة وقوامها: "أما فلسفة القصة العميقة فيتجلى في الإيمان العميق بالله تعالى الذي ينصر الحق على الباطل ولو طـــال أمده، والثقة بهذا الانتصار، ومواجهة أزمات الحياة المختلفة بصبر وثبات وإيمان، والتفاؤل حتى في الشدة وترقب الفرج من الله تعالى في الأزمات، والإيمان أن نية الخير والعزم عليه لا يولد في النهاية إلا خيرا، فلا يأس ولا قنوط في الحياة، والإيمان صبر وجهاد وثقة وتفاؤل"(7).

وجولات الدكتور محمد المبارك في عناصر الفكر والفن والإعجاز في القرآن الكريم كثيرة ومتنوعة كلها تبوئ الدكتور مكانة الصدارة بين رجال الفكر والبحث المشاهير في العالم الإسلامي.

وفاته:

توفى رحمه الله اثر نوبة قلبية أصابته مساء يوم الخميس 7 صفر عام 1402هـ الموافق لـ 8 ديسمبر 1981م، بينما كان في طريق عودته إلى مكة المكرمة من زيارة الحرم النبوي الشريف بالمدينة المنورة، فملأ الحزن قلب كل من عرفه، ومضى وغاب في الثرى شأن كل ميت، ولكن جهاده العلمي والفكري سيبقى مخلدا ما بقيت الحياة.

الهوامش:

1- أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث، ص 268.

2- جريدة "العصر"، ع 38 س 1-5، ربيع الاول 1402 هـ الموافق لـ 31 ديسمبر 1981م.

3- المصدر نفسه.

4- العصر محرم 1402هـ، الموافق لـ أكتوبر 1981م.

5- نظام الإسلام، ص 11-12.

6- مجلة المسلمون، ع2.م - 5 شوال 1375 هـ الموافق لـ أيار سنة 1956م.

7- مجلة المسلمون، ع3م 5- ذو القعدة 1375 هـ الموافق لـ 1956م.